العمارة الطينية: أساليب الحفاظ وإعادة التوظيف
إقليم المحس شمال السودان نموذجا

د. ياسر علي محمد تاي الله
أستاذ مساعد، قسم الدراسات السودانية، جامعة ابن سينا
د. رباب عبد الرحمن الوسيلة
أستاذ مساعد، قسم الإرشاد السياحي، كلية السياحة والفنادق، جامعة الزعيم الأزهري

المستخلص

تعد العمارة الطينية في إقليم المحس إرثا تاريخيا له عمق حضاري وأهمية كبيرة على النواحي الإقتصادية والاجتماعية والبيئية، فهو الشاهد المستدام بشكل عام، حيث تعد العمارة الطينية إحدى البيئات الصحراوية التي بدأت في التلاشي تدريجياً، نتيجة للظروف المناخية من جهة والإهمال وعدم الاهتمام بها من جه أخرى، وتمثل العمارة الطينية أبرز الموروثات الثقافية والتاريخية في إقليم المحس وخوفاً على هذا الإرث من الاندثار، صار الحفاظ عليه أمراً ضرورياً وملحاً وإعداد مقترحات للحد من عمليات الأخطار المهددة وكيفية تأهيلها وتوظيفها وترويجها سياحياً والمحافظة عليها.

الكلمات المفتاحية: إقليم المحس، العمارة الطينية، التراث المعماري، إعادة التوظيف، السياحة المستدامة

Abstract

The mud Architecture in the Mahas region is considered as ahistorical legacy that has a cultural depth and great importance on the economic, social and environmental aspects, as its sustainable material witness in general. as the mud architecture is one of the desert environments gradually began to fade away. As result of conditions and climatic factor on the one hand. Neglect and lack of interest in it on the other hand. The clay architecture represents the most prominent cultural and historical legacies in the Mahas region. Fearing this legacy of extinction, preserving it has become a necessary and urgent matter, preparing proposals to threatening hazards how to qualify and employ them, promote tourism and preserve them for their sustainability. .

Keywords: Mahas region, Adobe Architecture, architectural legacies, re-functioning, sustainable tourist

مقدمة:

تتناول هذه الورقة واحداً من عناصر السياحة الثقافية وهي العمارة الطينية وهي كذلك جزء من التراث المعماري الذي خلفه الإنسان نتاج تراكم حضاري وأصبح ذلك التراث سمة مميزة لتلك المنطقة، إذ تتناول بالتفصيل علاقة العمارة بالسياحة، والأخطار والمهددات التي تشكل خطراً على ذلك التراث المعماري مما يجعله عرضة للتلاشي، كما تتناول البيت الطيني وتفاصيله في منطقة المحس، وتتعرض الورقة إلى مكونات العمارة الطينية في المنطقة مثل المسيد والدفي وعناصر معمارية أخرى مرتبطة بتخزين الحبوب والتمور أو ما يعرف بالقسيبة. كما تتناول الورقة موضوع سياسات وأساليب الحفظ والحماية لتلك المكونات المعمارية، وكيفية إعادة توظيفها، وأهمية إعادة التوظيف وأهدافه وفوائده الاجتماعية والاقتصادية والبيئية على المنطقة وإنسانها.

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الذي يقوم على المشاهدة الواقعية لأشكال العمارة الطينية وأنواعها ووصفها وجردها وحصرها في بعض القرى والجزر في المنطقة، كما اعتمدت على جمع الروايات الشفاهية بوصفها مصدرا ثانويا للمعرفة من بعض الشخصيات الملمة بتراث المنطقة.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تفعيل دور الحفاظ والحماية وتأهيل بعض الأبنية المتضررة معمارياً وإنشاء وظائف جديدة ملائمة للتكوين المعماري حسب الظروف البيئية المحيطة. وذلك بعد جرد كل أنواع العمارة الطينية في المنطقة.

أهمية الدراسة:

إن عملية الحفاظ على المبنى الطيني وتأهيله لإعادة توظيفه تعد عملية ليست بالأمر السهل، ومقترح إعادة إحيائها لتبقى تمثل معالم حضارية مميزة وتوسيع أفق البحث فيها وبيان قيمتها المعنوية والمادية بكل عناصرها للاستفادة من فضاءاتها بأسلوب معاصر.

فرضية الدراسة:

تفترض الدراسة أن إقليم المحس يمتلك موارد سياحية مميزة يمثل المعمار الطيني أحد هذه الموارد، والتي بقليل من الاهتمام يمكن أن تلعب دوراً كبيراً في تعزيز الجانب السياحي والنشاط الاقتصادي والثقافي والاجتماعي وتحقق فائدة قصوى للمجتمع المحلي.

مفهوم التراث العمراني:

يمثل التراث العمراني هوية الشعوب والأمم، وهو التاريخ المادي والمعنوي والمرآة الحقيقية لأي حضارة، وتمثل معالم هذا العمران شاهدا حيّا على أصالة العمران وعراقته وارتباطه بالبيئة المحلية والعادات والتقاليد المتوارثة، فهو يشكل عنصراً مهماً من عناصر الهوية الثقافية والمعمارية (الزهراني . 2012م. 25).

ويمكن تعريف التراث العمراني بأنه كل ما شيده الإنسان من مدن وقرى ومبانٍ ومزارات وكنائس وأحياء وأسواق وغيرها، ويشمل كذلك العمارة التقليدية والطينية بكل أشكالها وعناصرها، كما يشمل الآثار، وهو يشمل جميع الممتلكات المنقولة والثابتة ذات الأهمية الكبرى في تراث الشعوب الثقافي، كالمباني المعمارية أو الفنية أو التاريخية بمختلف أنواعها، وكذلك التحف الفنية ومخازن المخطوطات وحتى المخابئ (بوجباري. 2007م. 19).

والمباني التراثية هي التي تشكل في مجموعها التراث المعماري لمنطقة ما وتحمل قيماً تاريخية اكتسبها إما من خلال تميزها الجمالي والمعماري، أو عمرها الطويل، أو قيمة تاريخية لارتباطها بأحداث معينة حدثت في المنطقة تلك الأحداث قد تكون اجتماعية، دينية، سياسية، اقتصادية (عبادي. 2022م. 371).

مهددات التراث العمراني:

يتعرض التراث العمراني إلى مهددات كبيرة مما يؤدي إلى خسائر كثيرة من القيم وأهمها الهوية، فالتخلي عن التراث يعني التخلي عن الماضي والجذور وقطع الأصالة (ديفيد. 1989م. 77) ومن تلك المهددات:

1/ المهددات الطبيعية: وتتمثل في الكوارث الطبيعية مثل الفيضانات والسيول والزلازل والبراكين، كذلك عناصر المناخ المختلفة من حرارة ورطوبة ورياح لها تأثير كبير على التراث العمراني، وهنالك تأثير سلبي لتلك العناصر على مكونات التراث العمراني وتركيبته، مما يؤدي إلى انهيار التراث وزواله.

2/ المهددات البشرية: تتمثل في غياب الوعي بقيمة التراث وأهميته، كذلك التطور التكنولوجي والصناعي الذي يهدد البيئة ويكون سبباً في تدمير التراث العمراني.

تعريف العمارة:

هي فن البناء حسب تعريف القاموس وتعد فناً، أما العلوم الهندسية والتقنية فهي وسائل تنفيذ

العمارة، وهي التي تأوي الإنسان ونشاطاته في المجالات الروحية والمادية على كافة المستويات الفردية والجماعية من وقت أن يولد إلى أن يموت وهي تشمل جميع المباني الدينية والدنيوية، الحضرية والريفية، السكنية والثقافية.. إلخ. وهي من أرقى أنواع الفنون وأهم أركان الثقافة المادية (محمود. 2002م. 59).

ويصنف ابن خلدون العمارة بقوله: "طبائع العمران البشري هو حسن الوجوه وأوثقها التي يقرأ على صفحاتها تاريخ الشعوب" (ابن خلدون. ب. ت. ط2).

وتعني عند العرب نقيض الخراب، والكلمة مشتقة من العُمر والعَمرُ، وهي اسم لمدة عمار الأبدان في الحياة، وقد تدل على فعل خطط البناء، وقد عُرّفت بأنها تشكيل فراغي يجيب على متطلبات المنفعة، المتانة، الجمال والاقتصاد، وتُعَرّف دائماً على أنها فن علمي لتصميم البناء مع الأخذ في الاعتبار الجوانب الجمالية والوظيفية بالإضافة لمعايير أخرى، ويعد المفهوم للعمارة أكثر شمولاً وأعم وصفاً لكونه ارتبط بنوعية من المباني المختلفة والمتنوعة والمحكومة بمحددات هندسية، فنية، اقتصادية، اجتماعية، نفسية وروحية بهدف الوصول إلى الامتلاك الأمثل للعمل المعماري (الدرديري. 2021م. 139).

وهي صورة محسوسة عن ثقافة الأمة وعن طريق فن العمارة يمكننا تحليل القيم الحضارية للمدن عبر التاريخ، إذ نجد أن التسلسل الفكري للعمران والعمارة يتفق مع التطور الفكري للإنسان حيث أن تاريخ الحضارة الإنسانية يعد سلسلة من المعارف البشرية المتراكمة (بيومي. 2001م. 9)

الطابع المعماري المتو افق مع البيئة:

من أهم الصفات التي يجب توفرها في المبنى الصديق للبيئة هي أن يتوافق الطابع المعماري له مع البيئة من الناحية التاريخية والاجتماعية، بل ومع العادات والتقاليد الاجتماعية مهما كانت الوظيفة التي يؤديها المبنى (إبراهيم، د. ت. 43). ذلك أن الطابع المعماري يعكس صورة الحضارة الإنسانية في كل زمان ومكان ويعكس شخصية المجتمع واتزان الفرد منه من الناحية الصحية والنفسية. وكلمة طابع تعني السجية التي فطر عليها الإنسان أي التلقائية بلا افتعال أو إملاء ولذلك فإن الطابع المعماري لا ينشأ فجأة ولا يأتي من فراغ، بل يأتي نتيجة مراحل تطور عادة مرّ بها فن العمارة ليرد على متطلبات البيئة والمجتمع الذي نشأ فيه الطابع (رملي. 2016م. 401).

العوامل التي تؤثر على الطابع المعماري:

يمكن إيجاز العوامل التي تؤثر على الطابع المعماري في مجموعتين رئيسيتين وهما:

1/ العوامل الطبيعية، والتي تحدد خواص المكان ويكون تأثيرها بطريقة مباشرة على مدى العصور المتعاقبة.

2/ العوامل الحضارية، التي هي نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته الطبيعية وتشمل العامل الديني، والاجتماعي والسياسي، والاقتصادي إلى جانب الأفكار الفلسفية والفنية

من سمات التوافق مع تقاليد المجتمع وعاداته فنجد أمثلة جيدة في منطقة الدراسة، حيث ظهرت المباني الطينية تحمل في طياتها رموزا ودلالات وقصصا ومأثورات وارتبط الطابع المعماري الطيني بحكايات وأساطير ومأثورات شعبية عبرت عن المكان والبيئة من خلال تصميم نابع من طبيعة هذا المكان والرموز المميزة له (محمود. مرجع سابق. 179)، وهي القوانين التشكيلية التي خلفتها البيئة، وظهرت آثارها في الفنون التي أنتجت خلال فترات متعاقبة، مما يعطيها طابعا مميزا وشخصية واضحة المعالم، تستطيع العين المجردة أن تكتشفها وهو الأسلوب الذي يعبر به المصمم عن واقعه وحياة مجتمعه اليومية، وتعرض القوانين التصميمية صيغاً خاصة لهذا الأسلوب هي بمثابة البصمات الشخصية لروح المكان، ويجب أن يتلاءم مع البيئة الحضرية ويجسد في نفس الوقت الطابع المميز للمكان.

تعريف العمارة الطينية:

تعد العمارة الطينية تراثاً معمارياً ثميناً تركه لنا الأسلاف على أنه نموذج إبداعي رائع وعريق، أدى وظيفة حضارية مستمرة عن طريق أفكاره المعمارية المتكاملة على امتداد الزمن، وعالجت العمارة الطينية جميع مشاكل البيئة وعمدت على استخدام الموارد المتاحة لتلبية الاحتياجات المحلية وتطويعها لخدمة المباني وهي نتاج آلاف السنين من الخبرات (متولي، ب. ت، ص، 32)، ويرى باحثون أن ثمة بعدا روحيا يربط الإنسان بمادة الطين والتي تعد المكون الرئيسي في خلق الإنسان، مما ساهم في المزيد من اعتماد هذه المادة مكوناً رئيسياً لعمارته، ولأن مادة الطين تحقق قدراً من التلاؤم والانسجام بين الإنسان ومحيطه الحيوي، فقد ساعد هذا الانسجام والتوافق على استمرار العمارة الطينية عبر مختلف العصور (نفس المرجع. 33).

المصطلح العلمي للطين:

الطين خليط من المواد الأرضية التي تتحد مع بعضها طبيعياً لتكون مادة الطين، إذ يتكون الطين من مادة الأليومينيا والسيلكا والماء، وقد قام كثير من الباحثين بتحليل هذه المادة ووجدوا أنها تتكون من 34% أليومنيا، و50% سيلكا، و6% جير، ومغنيزيوم و8% أكسيد الحديد و2% مواد عضوية، أما الطين النقي المسمى بالصلصال فتبلغ نسبة السيلكا فيه 46. 5%، الأليومينيا39. 5% والماء 14%، ويبلغ قطر حبة الطين الناعم 0. 002ملم أما حبة الطين الخشن فيتراوح قطرها ما بين (0. 02ملم- 0. 002ملم)

(المرجع نفسه. 35).

مزايا البناء بالطين:

إن مادة الطين من أفضل المواد البيئية ولا تشكل أي تلوث أثناء التصنيع أو التنفيذ أو التعديل أو في حالة هدم المبنى وإعادة بنائه أو حتى في حالة هجره إضافة إلى أن الطين يخزن الحرارة والبرودة والرطوبة ويؤثر ذلك في تحسين المناخ، ويمكن بإضافة بعض المواد الرابطة وبنسب مدروسة الوصول إلي خواص المتانة والعزل اللازمتين في البناء، وقد لوحظ أن البناء السميك من الطين يحقق أكبر قدر من التأخير الزمني في الناقلية الحرارية، وأن جدران بسمك 40سم يؤخر الحرارة لمدة 15ساعة، وبالمقابل فإن جدران البلوك الأسمنتي بسمك 20سم لا يؤخر الحرارة سوى 5ساعات (المرجع نفسه. 39).

ألوان الطين:

يتغير لون الطين وصفاته باختلاف نسب كميات المواد المكونة له، فمثلاً وجود أكسيد الحديد يجعل من الطين أحمر اللون، أما زيادة المغنيزيوم يصبح لون الطين أصفراً بينما تزيد السيليكا من مرونته، ونجد الكربون العضوي بكثرة في الطين الخشن وتزيد نسبة النيتروجين في الطين الناعم.

مهددات الأبنية الطينية:

المهددات الطبيعية

1/ **الرطوبة:** للرطوبة دور كبير في إتلاف المباني الطينية، وتتعدد مصادر الرطوبة سواء من الأمطار أو المياه تحت الجدران، أو الرطوبة الجوية. ويمكن علاج الرطوبة باتباع العديد من الأساليب مثل التهوية الطبيعية أو الصناعية عن طريق الأبواب والنوافذ أو تركيب مراوح في اتجاهين من المبنى في جهة الجنوب مثلاً وفي جهة الشمال، واحدة لإدخال الهواء والأخرى لشفط الهواء إلى الخارج لتقليل درجة الرطوبة. (فزاري. 1984م. 22)

2/ **الأمطار:** تعد الأمطار أشد عدوانية على المباني الطينية إذ تعمل على تحلل مكونات الطوب وانتفاخه وتمدده بسبب امتصاصه للماء ثم انكماشه مما يؤدي إلى تفتته وتحلل مكوناته، لذلك يؤدي تراكم مياه الأمطار أسفل أساسات المباني إلى تغيّر حالة الطين من الصلابة إلى اللزوجة وبذلك تصدع المبنى وانهياره.

ويمكن تفادي تجمع مياه الأمطار والسيول حول المباني الطينية بعمل مصارف تنقل المياه بعيدا عن

المباني. (الخفاجي. 2011م. 13)

3/ **الحرارة:** تؤثر درجات الحرارة المرتفعة على جدران المباني الطينية نتيجة لتعرضها لأشعة الشمس المباشرة مما يؤدي لزيادة حجم البلورات المعدنية التي تكون منها الطوب اللبن ونتيجة لارتفاع درجات الحرارة وانخفاضها يحدث انكماش في أبعاد هذه البلورات بدرجات مختلفة مما ينتج عنه شروخ وتشققات في أجزاء المبنى.

ويمكن معالجة الحرارة التي تؤثر على المباني الطينية بالتسقيف ووسائل الحماية مؤقتة مصنوعة من نفس المواد الأصلية. (الجوادي وآخرون. 2016م. 27)

4/ الرياح والعواصف: تعد الرياح من أكثر عوامل التعرية التي تتعرض لها المباني الطينية وهي سبب رئيسي لعوامل الهدم ونحر المباني خاصة في المناخ الصحراوي الذي تتميز به منطقة الدراسة، إلا أنه يمكن معالجتها بإنشاء مصدات الرياح والرمال المتحركة وتشجير الأرض المحيطة بالمبنى الطيني تفادياً لزحف الرمال. (الدراجي. 2015م. 53)

ثانياً المهددات البيولوجية: (الخفاجي. مرجع سابق. 67)

ويقصد بها عوامل التلف المرتبطة بالنبات والحيوان والكائنات الحية الدقيقة، إذ إن عوامل التلف البيولوجية على البناء الطيني والمتمثلة في نمو بذور النباتات في الشقوق والفواصل وتتسبب في تصدعها، وتعد الوطاويط أيضاً من الكائنات الحية التي تتسبب في تشوه المباني لكونها تتخذ من هذه المباني مهاجع لها مما يؤدي إلي تشويه الجدران ببقع بنية داكنة يصعب إزالتها مما يؤثر على الشكل الجمالي للمبنى، سواء أن كانت زخارف أو رسومات أو طلاء، وكذلك الجرذان وهي تتخذ من المباني مستوطناً لها، وتصيبه بأضرار يصعب التغلب عليها، إذ تحفر مخابئ لها في أساسات المباني مما يؤدي إلى اختلال في توازن المبنى وتصدعه. كذلك هجوم حشرات النمل الأبيض (الأرضة)، لأنها تتغذى على المادة السيلولوزية الموجودة في المواد العضوية بالطوب اللبن والمونة، مما يؤدي إلى تجويتها وفقدانها القدرة على تحمل الضغوط والأحمال الواقعة عليها مما يؤدي إلى سقوط العديد من الجدران.

ويمكن معالجة أضرار الحشرات والكائنات الحية الأخرى بمتابعة المبنى بصورة راتبة وسد التصدعات التي تصيب الجدران والأساسات بطبقة من المونة، والرش بالمبيدات بالنسبة للنمل الأبيض، وإجراءات الوقاية الكيميائية بعمل حواجز كيميائية لمنع دخول النمل والآفات الأخرى.

ثالثاً: المهددات البشرية:

تتمثل في الإتلاف المتعمد وغير المتعمد للمباني، ومن أخطر المهددات والمخاطر البشرية:

1/ الحروب والحرائق
2/ هجرة السكان
3/ سوء الاستخدام

ويمكن مجابهة هذه المهددات بوضع القوانين الصارمة والجدية في تطبيقها على كل من يقوم بالاعتداء على المباني الطينية ذات القيمة التاريخية والفنية والجمالية، وسن التشريعات المحلية والإقليمية والدولية (يس وآخرون. 2004م. 15).

أساليب الحفاظ على المباني الطينية والتاريخية:

إن البناء المعماري القديم والعمارة الطينية جزء لا يتجزأ منه يمثل الطابع الأساسي للحضارة الإنسانية التي استمرت عبر التاريخ لتعبر عن الذات والهوية لذلك كان لابد من الحفاظ على هذا النمط حفاظاً على هوية البلدان، وأهم تلك الأساسيات:

1/ **الحفاظ:** ويعني الإبقاء على القيم القديمة في البيئة التراثية العمرانية والتي يساهم بقاؤها في الحفاظ على قيم اجتماعية وتاريخية ذات أهمية للمنطقة والمجتمع كما أنه علم الحفاظ على مواد البناء، والتصميم المعماري، والجو التراثي الموجود في المباني، من خلال وضع مقادير دقيقة ومدروسة وحذرة لمقدار التعديلات التي ستمارس على تلك المباني (الحنيش. 2017م. 3)، كما أن الحفاظ على التراث المعماري هو العمل الذي يتخذ لصيانة المباني ومنع تلف أو تلاشي جزء أو كل عناصر المبني ذات القيمة (الزهراني. مرجع سابق. 38)، ويشمل كافة الأساليب التي تتيح للمبنى إطالة أمد الحياة. على أن هنالك مواثيق ومعاهدات دولية صادرة عن مركز التراث الدولي للحفاظ على الممتلكات الثقافية والتي تنص على منهجيات الحفاظ وسياساته عملياته. من بينها ميثاق أثينا 1931م الذي يختص بالتراث والحفاظ على المباني ذات القيمة التاريخية والثقافية والحضارية، وقد صدر بعد الدمار الذي لحق بالمباني ذات القيمة التاريخية والحضارية والفنية نتيجة للحرب العالمية الأولى، ثم ميثاق فينا 1964م وميثاق واشنطن 1987م (المرجع نفسه. 42)
2/ **الترميم:** يعني إعادة المبنى إلي حالته الأصلية عن طريق إعادة بناءه أو إصلاحه
3/ **الصيانة:** هي العامل الرئيسي في إطالة عمر المبنى وإكسابه المظهر الحسن حيث نحد من خلالها أي تلف يحتمل وقوعه في المبنى باستخدام الوسائل والأساليب المناسبة في ذلك (المالكي. 2004م. 4)

4/ **التجديد:** هو إضافة أشياء حديثة للمبني مثل، الكهرباء، المياه، التدفئة، . . . إلخ وقد تؤدي هذه العمليات إلى وقوع أضرار بالمبنى لذلك يجب على المهندسين المتخصصين في الترميم أن يكونوا على حذر عند معالجة مثل هذه الحالات (الموسوي. 2009م. 11).

أما الوسائل الحديثة للحفاظ على المباني ذات القيمة التاريخية والحضارية فتتمثل في الآتي:

1/ **الارتقاء:** ويهدف إلى الحفاظ على الكتلة العمرانية واختيار بعض الأنشطة الاقتصادية لها والتي تتناسب مع النطاق بقيمته الحضارية والجمالية والفنية (المحاري. 2017م. 5).

2/ **التأهيل:** إعادة التأهيل لمعالجة البناء المتضرر أو إضافة تفسيرات جوهرية في المكونات الأصلية للمباني بهدف الحفاظ على المورد التراثي والاستفادة الأمثل منه، كما يمثل التأهيل في إعادة البناء المعماري بصورته الحالية لتوظيفه بوظيفته الأصلية أو أي وظيفة جديدة مناسبة (المالكي. 2004م. 44) وذلك من خلال الإصلاح والتطوير مع الحفاظ على العناصر التي تحمل القيمة التاريخية والمعمارية والثقافية مما يضمن له الاستمرارية (آدم. ب. ت. 24). ومن الفوائد الإضافية لإعادة البناء والتأهيل، فوائد اجتماعية حيث يحافظ الناس على هويتهم وعلى أواصرهم الاجتماعية والثقافية وأهمها الفن والعمارة.

3/ **الاستدامة:** يعد الهدف الرئيسي للاستدامة المباني الطينية ذات القيمة الفنية والتاريخية هو حفاظ عليه لتحقيق أقصى فائدة مادية ومعنوية وثقافية واجتماعية مع الحفاظ عليها للأجيال القادمة (نافع. 2021م. 33)

العمارة والسياحة المستدامة:

تعد العمارة بشكل عام من أهم متطلبات التنمية السياحية المستدامة باعتبار أن الجانب المعماري له صلة وطيدة بالمجال السياحي والحضري والمقاصد السياحية إذ يمكن للعمارة أن تقدم منتجات سياحية متميزة تخدم السائح والبيئة على الحد السواء أمام ما يعرفه المحيط البيئي من تدهور وفوضى عمرانية بسبب عدم احترام التشريعات والقوانين المنظمة لأعمال البناء والتنظيم العمراني، وكذلك غياب الثقافة البيئية (الدرديري. مرجع سابق. 33).

وقد أدرك خبراء كثيرون أن العمارة يمكن أن تؤدي دوراً كبيراً في عملية الحفاظ على البيئة، وإذا سلمنا بأن فن العمارة وتوازن البيئة والمحيط هو السجل المرئي والحي لصورة الحضارة والتقدم بأبعادها المختلفة، وأن العمارة البيئية هي المتماشية مع احتياجات الإنسان متطلباته التي تعبر عن الماضي والحاضر والمستقبل بالإضافة إلي تماشيها مع البيئة المحيطة (المرجع نفسه. 35).

كما أن العمارة المستديمة هي التي تلبي الحاجة الوظيفية والجمالية والرمزية للإنسان على أن السياحة المستديمة في علاقتها مع العمارة تقتضي ضرورة التفاعل مع هذه الحاجات الثلاث ولابد من إدراك الهندسة المعمارية بمختلف أبعادها في الفعل السياحي خاصة وأن العمارة لها تأثير كبير في نفوس الناس، أذواقهم وطباعهم. وترتبط العمارة بالسياحة من خلال اشتراكهما بالمكان بوصفهما حاويا للمحفزات السياحية، فالسائح هو متلقي ومستخدم للمكان والمعمار منتج، ويبحث السائح عن الخصائص الجمالية والوظيفية للمكان ليتمتع بها ويتذوقها ويبحث دائماً عن الكيفيات التي يحقق بها المتطلبات (محمود. 2019م. 178)، وترتبط السياحة ارتباطا مباشراً بتاريخ المجتمع وحضارته وقيمه المكانية ولذلك فإنها تحتاج إلى فكر العمارة للحفاظ على تلك الحضارة وإحياء القيم المكانية والتاريخية والجمالية وإظهارها لجعلها محسوسة وملموسة من قبل المتلقي (هدى. 2001م. 3).

وتعد العمارة الطينية التقليدية من أهم عناصر الجذب للسياحة العالمية والمحلية في عصر تعد فيه صناعة السياحة من أهم الصناعات العالمية التي تهتم بها كافة الدول لما تحققه من انتعاش اقتصادي مباشر أو غير مباشر على الأمة، فالسياحة تهتم بالتراث العمراني بشكل كبير من حيث المحافظة على ديمومته وإبرازه في الوقت الذي يقوم فيه التراث العمراني بإمداد السياحة بعناصر جذب مميزة وموارد اقتصادية مهمة للتنمية السياحية بشكل خاص وللاقتصاد الوطني بشكل عام. وتستوجب الأهمية التاريخية للتراث العمراني وضع خطة عمل تهدف إلى تحقيق تنمية سياحية مستدامة ومتكاملة بيئياً، وتحافظ على المناطق التراثية وتراعي الظروف الاجتماعية للسكان ومتطلبات المجتمعات وذلك بهدف المحافظة والاستفادة من هذا المورد المهم (نفس المرجع. 1).

العمارة الطينية في منطقة المحس:

شهدت المادة المستخدمة في العمارة التقليدية تغيرات أساسية يعود أولها الي العهد المسيحي الذي يعرف بالتاريخ الوسيط (500-1500م) حينها كانت المساكن صغيرة الحجم ومبنية من أحجار الجرانيت وتتكون من عدة غرف، والملاحظ أن مداخلها صغيرة الحجم وقصيرة الطول، فلابد أنها قد بنيت كذلك باعتبارها أحد الأساليب الدفاعية لمواجهة خطر الإنسان والحيوان معاً. وجدت قرب هذه المساكن بعض الأماكن من الواضح أنها كانت تستعمل للطبخ لوجود آثار بقايا النار بها. ما يميز هذه المساكن أنها بنيت بأسلوب خاص استخدم فيه الطين لتثبيت أحجار الجرانيت ببعضها البعض، الأمر الذي لم تتم ملاحظته في أبنية أخرى متزامنة معها إلى الجنوب من أرض النوبيين.

حتمت عوامل المناخ الصحراوي على الإنسان أن ينتهج في العمارة التقليدية في العصر الحالي نمطا معينا ونظاما هندسيا ونوعية مواد بناء تتلاءم مع المناخ الحار جداً في المنطقة خاصة فصل الصيف. فقد

عرفت مواد البناء المتمثلة في الطين بعد أن يتم عجنه وتخميره لعدة أيام، ويتم البناء في شكل (سريقة) وقد بنيت جدران المنازل والغرف بارتفاع عالي نسبياً حتى يسمح بمرور أكبر سعة من تيار الهواء. ويكون السقف من سيقان أشجار الدوم والنخيل وجريد النخيل وبعض الأعشاب، ولا يوضع السقف على جدران الغرف بصورة مباشرة، إذ توضع قطع من الحجارة (حجر رملي أو جرانيت) ومن ثم يوضع عليها أجزاء السقف بحيث تكون هنالك مسافة بين الجدار والسقف تقدر ب30سم تسمح بدخول الهواء والضوء، وحتى يكون السقف بمأمن من حشرة الأرضة التى تكثر في المنطقة.

لوحة رقم (1) بوابة بزخارف ورموز جمالية متميز

لوحة رقم (2) بوابة عليها زخارف متنوعة

شهد الانتقال إلي البناء بالطين العديد من التغيرات التي طرأت نتيجة لتأثر أهل المنطقة الواضح بالأحداث الداخلية والخارجية حولهم. فقد تزامنت البعض من هذه المساكن ذات الأشكال الهندسية غير المنتظمة مع المساكن التي عرفت (ببيوت القش أو الرواكيب). ثم نلاحظ أنه وفي منتصف القرن السابق، أصبحت خارطة المساكن في منطقة المحس تتخذ شكلا هندسيا أكثر انتظاما، يعتمد بشكل رئيسي على البناء في الاتجاهين الشمالي والغربي من المسكن. الاتجاه أو الحائط الشمالي من البيت يشتمل على ثلاث وحدات أو ثلاث غرف، يلتصق بها مباشرة الاتجاه أو الحائط الغربي، الذي يحتوي على وحدتين أو غرفتين، مع الاحتفاظ بصغر حجم ومساحة المساكن وعمقها. إضافة إلى أن الشكل العام للمباني ما زال يتسم بالخشونة والقسوة في أسلوب البناء. في تطور لاحق أضيفت وحدة صغيرة جديدة في أ قصى الجزء الجنوبي الشرقي من المسكن هي (الأوضة كدود: *Uda kuddud*) التي كانت نتاجا لإحساس المجتمع بضرورة وجود الخصوصية في حياة الأسرة. ثم تحولت هذه الوحدة إلى الحائط الشمالي الشرقي من المسكن، أي في قبالة موقعها القديم مباشرة، لتحل محلها وحدة جديدة أدخلت حديثا على المجتمع نتيجة للاحتكاك المباشر بالمجتمعات الأخرى خارج السودان، وحتي ذلك الحين لم يخصص مكان بعينه للرجال سوى (البراميد)، أما الضيوف فقد كان مكانهم المسيد. عرفت تلك الوحدة في المجتمع بـ (الديوان *Daiwan* أو القصر *Kasur*) ولأهمية تلك الوحدة التي سبقت (الديوان) في الموقع بالنسبة للرجال فقد تم تحويل موقعها بعد ذلك إلى الجزء الشمالي الشرقي من البيت. وبذا أضيفت وحدة جديدة رابعة إلى الحائط الشمالي، بينما استحدثت وحدة جديدة على الحائط الجنوبي، إلى الركن الجنوبي الشرقي منه.

غالبا هذه البيوت لها بابان خارجيان يتجه إحداهما شرقا ويستعمله الرجال ويعرف (بباب السِر)، كما يفتح الآخر جنوبا ويخص النساء. (انظر لوحة رقم 6) مقاسات هذه الأبواب الخارجية تقريبا ثابتة لا تتغير، 200×125سم. حتى الستينيات كانت الأبواب الخارجية أعرض قليلا وكانت تعرف (بالكوبد: *kubid*) أو باب السنط وهو باب ضخم يصنع من خشب أشجار السنط (انظر لوحة رقم 1و2) ويثبت الباب من جانب واحد على الحائط المخصص لفتحة الباب بينما يثبت على الحائط الآخر الجزء المخصص ليدخل فيه قفل الباب –الكالون-الذي يعرف (بالدقل: *Dugul*). أما مفتاح الباب نفسه فيسمي (بالكُشر: *Kusher*) (انظر لوحة رقم3) منذ ثمانينيات القرن الماضي أصبح هذا الباب الخارجي يصنع من الحديد، لأبعاد خطر حشرة الأرضة، ولمواكبة الحداثة إذا كانت المنطقة خالية من تلك الحشرة. أما ذلك الباب الوسط الذي يفصل بين القسمين الشرقي والغربي فقد كان في سبعينيات القرن السابق عبارة عن مدخل أو فتحة بيضاوية الشكل، تعرف (بالقبوة: *Gabwa*) وقد تحول ذلك المدخل الي باب من خشب الزان ثم أصبح يصنع من الحديد حديثا (انظر لوحة رقم 11).

لوحة رقم (3) شكل يوضح الكالون والمفتاح الخشبي للبوابة في منطقة المحس

وفي فترة لاحقة ظهرت في المنطقة العمارة الطينية من طابقين خاصة في الفترة التي ظهر فيها الوجود العثماني في المنطقة. (انظر لوحة رقم 4)، وعرفت في المنطقة العمارة الدينية من مساجد وكنائس واستخدم في بنائها الطوب اللبن أو الطوب اللبن والحجر (انظر لوحة رقم 5).

لوحة رقم (4) عمارة طينية من طابقين، جزيرة آرتميري

لوحة رقم (5) مسجد قرية نوري

تفاصيل البيت التقليدي في منطقة المحس:

القسم الشرقي من المسكن يحتوي على وحدتين الأولى يلاحظها الداخل إلى هذا القسم من خلال الباب المخصص للرجال على اتجاه اليمين من الباب الشرقي.

وحدة الأوضة كدود:

الوحدة الأولى هي الغرفة التي تعرف (بالأوضة كدود) وهي من الوحدات القديمة في البيت النوبي، تم نقلها في مطلع خمسينيات القرن الماضي لتحل محلها وحدة (الديوان). الوظيفة الأساسية لهذه الغرفة هي كونها المكان الوحيد الذي يختلي فيه الرجل بزوجته داخل البيت، وقد ألحق بالجانب الشرقي منها في معظم البيوت حجرة صغيرة تستخدم للاستحمام والاغتسال. نسبة لأن السمة المميزة لحياة النوبيين في الشلال الثالث هي سفر الرجال، فإن هذه الحجرة تتحول بمجرد سفر الزوج إلى مخزن خاص بالرجل، يحفظ داخلها كل متعلقاته الشخصية داخل صندوق خشبي كبير يغلق من الخارج بإحكام ويعرف لديهم (بالسحارة). (السحارة) هي أيضا من تأثيرات الثقافة المصرية التركية على المجتمع النوبي:

أصبحت وحدة (الأوضة كدود) بعد ذلك مخزنا لكل البروش والأغطية والمراتب وخلافه من الأدوات التي كانت تستعمل لفرش وحدة (الديوان) في فترة وجود الزوج. وحدة (الأوضة كدود) إذن هي تعميق لفكرة

التخزين في المجتمع ككل، وعند الرجل على وجه الخصوص، فهذه الوحدة تغلق تماما بعد سفر الزوج ولا تفتح ثانية إلا حين عودته إلى الوطن. يبدو أن فكرة التخزين هنا تحمل مضامين مادية ومعنوية في نفس الحين، المضمون المادي يظهر جليا في تخزين المتعلقات الشخصية بينما يتركز المعنوي في كون هذه الوحدة مستودعا لتخزين أسرار الحياة الزوجية داخل جدرانها.

ارتباط وحدة (الأوضة كدود) بالرجل جعل ذلك ينسحب على ممارسة بعض الطقوس و المعتقدات الاجتماعية.

لابد أن هنالك بعض الخصوصية التي ربطت ما بين الرجل النوبي وبين هذه الوحدة، فعلى الرغم من أنها ترمز إلى استمرارية الحياة حيث يمارس الرجل فيها خصوصية حياته، إلا أنها أيضا تشير إلى نهاية الحياة، فتمارس فيها كل طقوس ما قبل الدفن للرجل تحديدا. بعد ظهور وحدة (الديوان) انتقلت كافة المراسم الخاصة بما بعد الموت للرجل إلى هذه الوحدة، وهي عبارة عن غرفة صغيرة المساحة 3-4×2-3 متر، بها نافذة أو اثنتين تفتح في جهة الشمال، إضافة إلى باب يفتح على جهة الجنوب مساحته 180×80 سم. حتى سبعينيات القرن الماضي، ألحق حديثا بهذه الغرفة على الجانب الشرقي منها مكان صغير للاستحمام بمساحة أقل من الغرفة حولي 2 × ½ 2متر، يفصله عن تلك الغرفة مدخل أو معبر لا يوجد به باب، تعرف هذه الوحدة أو الغرفة محليا (الأوضة كدود: *Udah Kuddud*). كلمة (كدود) في اللغة النوبية هي صفة بمعنى الصغير وهي تعني الغرفة الصغيرة.

الديوان:

هو الوحدة الثانية من القسم الشرقي تقع قبالة الوحدة الأولى من هذا القسم (الأوضة كدود) أي على الحائط الجنوبي الشرقي من المسكن، وهي حجرة واسعة المساحة 8- 7×4متر وهي تلك الحجرة التي كانت تعرف (بالقصر) عند دخولها إلى المنطقة أولا، فقد كانت مرتفعة عن بقية وحدات المسكن، حتى أن الداخل إليها يرتقي عددا من الدرجات للوصول. كانت حينها تشبه بالقصور الملكية المصرية، مما جعلنا نعتقد انها كانت تعرف بذاك الاسم تشبيها لها بالقصور الملكية، التي عمل بها معظم النوبيين مما طبع آثارها في دواخلهم، ثم أصبحت تعرف بعد ذلك (بالديوان). خصصت هذه الوحدة ليقضي بها الرجل الوقت المخصص لوجوده بالبيت، كما أنه يستقبل بها ضيوفه. تستعمل وحدة (الأوضة كدود) على الجانب الآخر، على أنها مكان خاص يختلي فيه الرجل بزوجته إذا كان حاضرا، مع استعمالهما الخاص للحمام المجاور مكانا للاغتسال. كانت عملية الاغتسال في السابق تتم في الغرفة نفسها باستعمال (طشت: *Tasht*) من النحاس إلى جانب الصفائح التي يجلب بها الماء. تتحول هذه الغرفة عندما يسافر الزوج، وهذه سمة الحياة وسط أفراد المنطقة، إلى مخزن لمقتنيات الرجل الخاصة، إلى جانب المنقولات الموجودة بوحدة (الديوان)، فتغلق بعد ذلك كل من الوحدتين،

ولا تفتحان إلا للضرورة (انظر لوحة رقم 12و13).

وحدة القوسكونوق (القسم الخاص بالنساء)

الوحدة الثالثة تقع في القسم الغربي للبيت النوبي –قسم النساء- وتعرف (بالقوسكونوق) التي تعني الغرفة الوسطى أو الغرفة التي خصصت للنوم هذه الوحدة تشهد على الكثير من نشاطات الأسرة النوبية اليومية في منطقة المحس، فهي المكان الذي يستعمله كل أفراد الأسرة للنوم ليلا خاصة في فصل الشتاء، كما أنه المكان الذي ينزل فيه ضيوف الأسرة المقيمين لفترة من الزمن.

وتكتسب هذه الوحدة أهمية كبرى تأتي لكونها مركزا لممارسة معظم تفاصيل الحياة النوبية اليومية، فالكثير من العادات والتقاليد التي تميز الثقافة النوبية تمارس داخل وحدة (القوسكونوق). العادات الاجتماعية منها مثلا أن تجهيز العروس بالحناء قبل الزواج يكون في هذه الوحدة، وهي نفس المكان الذي يجب أن تتم فيه ليلة الدخلة، فعند وصول الفتاة مرحلة البلوغ تبدأ والدتها بتجهيزها للزواج. لهذه الوحدة أيضا العديد من الوظائف الطقوسية المهمة التي تربطها رباطا وثيقا بحياة وثقافة الفرد النوبي في المنطقة. من طقوس دورة الحياة التي كانت تمارس داخل (القوسكونوق) عملية الوضوع للمرأة. وقد تحولت لاحقاً هذه الممارسة ليكون موقعها (الأوضة كدود).

وحدة الشّا او الحوش

في تصميم خارطة البيت النوبي هي الفناء الذي يعرف في المنطقة (بالحوش) أو (الشا *Sha*):

هذه الوحدة بقسميها الشرقي والغربي تعدان امتدادا طبيعيا لتركيبة الحياة النوبية الثقافية. من أهم العناصر الثقافية الموجودة في هذه الوحدة نلاحظ وجود (القساسيب جمع قوسيبة)وسنتحدث عنها بتفصيل في موضع آخر.

وحدة الإِيقِشّة:

وتعني المطبخ أو مكان النار. هذه الوحدة كمثيلاتها في العالم أوجدت لتمارس داخلها المرأة إرثها التقليدي في الطبخ. المرأة النوبية في منطقة المحس تحتفظ بذخيرة كبيرة من الأدوات المصنعة محليا على وجه الخصوص لتستعمل داخل (الإيقشة)، فمنها نسمع عن (الديو *Diu*) وهو بمثابة الصاج المصنوع من الحديد لعمل الخبز التقليدي السوداني المعروف (بالكسرة *Kisra* أو القراصة *Gurassa*) التي تعد الخبز الشعبي النوبي. يتفق (الديو) شكلا مع الصاج المعروف، ولكن تختلف المادة المكونة لكل منهما، فبينما يصنع الصاج

من الحديد، نجد أن (الديو) يتم تشكيله من الطين، ولكن بسمك مناسب بحيث يحمي الطعام من لهيب النار المباشر ولكنه يساعد على إنضاجه في نفس الوقت. توقد النار نفسها وسط ثلاث أشكال من الطين تعرف (بالأُبِرتى) الذي يشابه في شكله المبخر الفخاري المعروف الذي يستعمل لإيقاد البخور. توضع هذه (الأُبِرتى) في شكل مثلث بحيث توقد النار في الفراغ الموجود وسط تثليث هذه (الأُبِرتى)، ويستعمل بعد ذلك (الديو) أو خلافه من آنية الطبخ. (انظر اللوحات رقم 19و20)

لوحة رقم (6) مبنى طيني قرية كدرمة

القسم الشرقي للمبنى من الخارج ويظهر المدخل الشرق للرجال والجنوبي للنساء

بعض السمات المعمارية في البيت التقليدي الطيني:

الفتحات والنو افذ:

كانت تستعمل فتحات صغيرة حوالي 40×30سم بدلا عن النوافذ وتعرف (بالطاقات *Taqat* مفردها طاقة *Taga*) وهي عالية جدا وقريبة من السقف ويوجد نوع آخر من الطاقات تختلف عن سابقتها في موقعها فهي تشغل موقعا قريبا من الأرض على بعد حوالي 60سم من سطح أرضية الغرفة وهي تستعمل للتهوية والإضاءة. وقد صممت هذه الفتحات والنوافذ في البناء الطيني في المنطقة استجابة لمؤثرات المناخ الصحراوي، فهي لا تعدو كونها فتحات صغيرة منتشرة على الجدران الخارجي للأبنية، وذلك لمواجهة الرياح وتخفيف ضغط الهواء على المباني، وتأخذ هذه الفتحات أشكالاً مربعة ومثلثة، وأخرى ذات شكل غير منتظم (انظر لوحة رقم7و8).

لوحة رقم (7):شكل تصميم المثلثات أعلى الجدران

الأقواس:

تميزت العديد من المباني بهذا الشكل من التصميم، وهو تصميم نصف دائري في كثير من المباني ووظيفتها الأساسية تتمثل في شد الأسقف وضغطها (انظر لوحة رقم 9و10).

المثلثات:

تكون أعلى الجدران على شكل خط مستقيم أو دائرية وهي عبارة عن أشكال تكون فوق نهاية المبنى المستقيم رؤوسها إلى أعلى وقاعدتها على نهاية الجدران أو العكس يبعد الواحد عن الآخر مسافة بسيطة مشكلاً نظما فنيا بديعا.

لوحة رقم (8) نموذج للفتحات على شكل المثلثات

لوحة رقم (9)، تصميم الأقواس في العمارة الطينية، قصر العمدة عبدالله يعقوب، قرية جدي

لوحة رقم (10):منزل تقليدي، تصميم الأقواس قرية أبو صارة

لوحة رقم (11):الفاصل بين الجزء الغربي والشرقي، قرية كدرمة

لوحة رقم (12) :درج يؤدي إلي غرفة الديوان

لوحة رقم (13) الغرفة كدود من الخارج

الدفّي: استمر البناء بالحجر فقط أو باستعمال الحجر والطين معا حتى فترة العثمانيين، تلك الفترة التي شهدت فيها المنطقة بناء الحصون العثمانية التي تعرف محليا بالدفوف *Deffies* هذه الدفوف عبارة عن ممتلكات عسكرية عثمانية تحولت فيما بعد إلى مناطق دفاعية أهلية يسكنها زعيم المنطقة أو كبيرها ، فتتحول بدورها إلى حصن يحتمي داخله كل أهل المنطقة إذا ما تعرضوا لأي هجوم (انظر صور رقم 14و15و16). نعتقد أن هذه الدفيات بنيت قبل المهدية وأنها قد أعيد بناؤها أو ترميمها أو السكن بداخلها

في بعض الأحايين، ولكن تم هجر الكثير منها بعد المهدية لما عانته المنطقة عموما من أزمات، نتيجة لسياسة الخليفة عبد الله الخارجية، إضافة الأسباب البيئية من مجاعة وجفاف فيما يعرف بمجاعة سنة 1306هـ. المراقب لهذه الدفوف الآن يلاحظ أنها ظلت مهجورة لأكثر من قرن من الزمان، باستثناء القليل منها الذى يعد على أصابع اليد الواحدة.

لوحة رقم (14) دفّي من الحجر والطين، قرية قرقود

لوحة رقم (15) دفي من الطين، قرية الترعة

لوحة رقم (16) دفي من الطين قرية مشكيلا

القوسيبة:

والقسيبة عبارة عن بناء أسطواني الشكل يصنع من الطين اللبن المخلوط بروث الحيوانات بعد تخميره وتركه لمدة تتراوح ما بين 7-21يوم، وهو عبارة عن مخزن لحفظ الغلال والتمور له قاعدة مع سطح الأرض، وفتحة جانبية لها قفل من الطين وتسمى هذه الفتحة بوسبوس وله غطاء دائري في أعلى وتتفاوت أحجام القسيبة حسب الغرض الذي صنعت من أجله، فهنالك قسيبة تحفظ الحبوب لأغراض التجارة وتكون كبيرة الحجم ارتفاعها حوالي 3. 75م وقطرها حوالي 50سم، وهنالك قسيبة ذات حجم متوسط يكون ارتفاعها في الغالب 1. 5-2م وقطرها حوالي 30-35سم، وأخرى صغيرة الحجم ترتفع من الأرض حوالي 1. 5م وقطرها حوالي 20-25سم، (Tahir. 2015. 85) (انظر لوحة رقم 17و18).

"وتزين القساسيب ببعض الزخارف على سطحها مثل الصليب ونقوش في شكل حزام في الوسط، يتم وبعض الثقوب الغائرة أو الخطوط السطحية. هذا يعود بنا كثيرا إلى الفترات التاريخية القديمة التي كان الإنسان السوداني يقوم فيها بتزيين جراره الطينية الأسلوب نفسه، مما يشير إلى استمرارية ملامح الثقافة النوبية السودانية. وكذلك رسم التمساح، وهذه عادات وتقاليد مستمدة من الفترة المسيحية، كما أن لكثير من العائلات رموزا وعلامات تميز قساسيبهم، حتى إن جرفها الفيضان يتم معرفة أصحابها بالرمز الذي على سطحها" (سمير بوكاب. 65عام)

نلاحظ في هذا الخصوص وجود الأثر المسيحي المتمثل في استعمال رسم الصليب في الزينة، فرغم انعدام وجود الدين المسيحي على أنه المعتقد الرسمي أو الشعبي في المنطقة، إلا أننا نلاحظ أن آثاره مازالت لصيقة بحياة بعض المجتمعات ومتمثلة في تراثهم التقليدي. الداخل إلى البيت النوبي في منطقة المحس من

بابه الجنوبي، الذي يفتح على القسم الغربي من الحوش أو الشا كما ذكرنا في موضع سابق ووحدة الشا هي المكان المخصص لوضع القساسيب إذ يلاحظ اصطفاف (القساسيب) على اختلاف أحجامها على الحائط الغربي من (برندة المزيرة) ويلاحظ أيضا إلى جانب (القساسيب).

وهنا تبرز أيضا القيم التراثية العملية المحلية، فمن الواضح أن المجتمع النوبي يستخدم مادة الطين كثيرا مادة للحفظ. لذلك نجده كثيرا في بناء البيت الذي يعد عنصره الأساسي، والبيت أساسا لحفظ الإنسان ماديا بالحفاظ عليه من الأخطار الطبيعية حوله، ومعنويا بالحفاظ على أسراره الحياتية وطقوسه التراثية. (القساسيب) أيضا تصنع من الطين، وهي أداة للحفظ. (الكامار) يصنع من الطين وهو أداة للحفظ. إلى جانب بعض الآنية التي تستعمل في وحدة (الإيقشة) أمثال بعض الأطباق وغيرها، وكلها تستعمل للحفظ.

لوحة رقم (17) توضح الزخارف في شكل حزام وسط القسيبة

لوحة رقم (18) توضح نماذج لقساسيب وتظهر الفتحة أسفل القسيبة

لوحة رقم (19) قاعدة من الطين يوضع عليها الموقد

لوحة رقم (20) أدوات من الطين يوضع عليها إناء الطبخ

المسيد:

الواضح أن للمسيد أهمية كبرى في حياة كل أفراد المجتمع النوبي في منطقة المحس فهو المقر الرئيسي لكل لرجال القرية وشبابها وصبيانها، فلا يوجد رجل في القرية يتناول طعامه داخل البيت إلا إذا كان مريضا أو معه ضيوف، فالمسيد هو مكان تجمع الرجال والصبيان لتناول كل الوجبات وخصوصا وجبة العشاء، فهي الوجبة الوحيدة التي يتناولها الرجال دون وجود ما يثقل كاهلهم من التزامات أو أعمال. علاوة على أن الرجال يحرصون كثيرا على أداء صلواتهم بالمسيد، باستثناء صلاة الجمعة التي يجب تأديتها بالجوامع الكبرى القريبة.

إلى جانب المكانة الدينية يقوم المسيد بتأدية وظيفة اجتماعية مهمة، فهو مكان إقامة كل مناسبات الأتراح والأفراح التي تشهدها القرية كالزواج والختان ودعوات الولائم في الوضوع والسماية وكرامة الحج وما شابه ذلك.

من ملاحظات كاتبة البحث، أن المسيد أيضا مكان لفك الخصومة والنزاعات كما أنه مكان لعقد معاهدات الصلح ومكاتبات البيع والشراء. طرأت حديثا على المسيد العديد من التغيرات من حيث الخارطة والمساحة والحجم، فتبدلت المساحة الصغيرة بأخرى كبيرة كثر فيها عدد الغرف الشمالية والجنوبية التي بدأت بغرفتين ثم أصبحت كثيرة العدد دون تحديد على حسب المساحة المتاحة وقد زادت أيضا مساحة الفناء الذي يوجد في منتصف المبنى بحيث تبنى تلك الغرف حوله، فصار أكثر سعة ليقابل الزيادة الواضحة في عددية أهالي المنطقة، وبالتالي تعدد المناسبات التي تقام داخله. لذلك يمكننا القول بكل وضوح أن المسيد في حياة أهالي المحس يعد مركزا دينيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، وهو بمثابة البرلمان الشعبي الذي تناقش داخله كل القضايا التي تهم المجتمع على اختلافها وتنوعها، كما أنه يعد تراثا عقائديا قديما التصق بالمجتمع النوبي في المنطقة.

إعادة التوظيف للمباني الطينية:

تعد إعادة التوظيف والاستخدام للمباني التراثية والطينية جزءا منها من أهم الأساليب للحفاظ عليها، حيث يساعد إعادة استخدام المبنى التراثي على استدامة المبنى، ومنع دخوله دائرة التدهور ويجب أن تكون الوظيفة الجديدة للمبنى تلائم الاحتياجات الحالية وتضمن حماية المبنى ودمجه مع النسيج الاقتصادي والاجتماعي والبيئي للمنطقة.

لتحقيق تلاؤم وظيفي للمباني التراثية مثل المعمار الطيني في منطقة المحس بكل مكوناته فإن ذلك ليس بالأمر السهل، إلا أن تحليل العناصر الوظيفية الأصلية والجديدة والقيام بالربط المنطقي بينهما منذ بداية الدراسة وقبل عملية التنفيذ، إضافة إلي دراسة الظروف البيئية، يتوجب التفكير في الوظيفة التي نستطيع تعريف أهالي المنطقة من التراث الاجتماعي المؤثر بدرجة كافية لتجنب العديد من المشاكل الوظيفية التي تظهر أغلبها بعد استخدام المباني لوظائفها الجديدة.

فوائد إعادة توظيف المباني الطينية:

1/ فوائد اجتماعية: إذ تحافظ الناس على هويتهم وعلى صلاتهم الاجتماعية

2/ **فوائد ثقافية:** يحافظ المجتمع على الفنون والعمارة والآثار وكل عناصر التراث المعماري بما في ذلك الفولكلور المرتبط به من عادات وتقاليد وطقوس.

3/ **فوائد اقتصادية:** إعادة استخدام المبنى القائم أوفر كلفة اقتصادية من الهدم وإعادة البناء وما يرافقها من تكاليف.

4/ **فوائد بيئية:** المباني القديمة أكثر ملاءمة للبيئة، فالمواد التقليدية التي كانت تستخدم في البناء مثل الطين، فهي مواد طبيعية لا تسبب الأذى للبيئة.

الأهداف الاجتماعية لتوظيف المباني:

1/ تنمية الوعي القومي للحفاظ على المباني التراثية والطينية باعتبارها تراثاً حضارياً يجب المحافظة عليه (زكريا. 2008. 73)

2/ تعزيز الانتماء القومي والاجتماعي من خلال التركيز على القيمة الرمزية وهي القيمة التي تعكس حضارة عصر. (عبد القادر. 2006. 81)

3/ الارتقاء بالذوق العام لأفراد المجتمع حيث إعداد مواطن ولا سيما الأطفال وسط بيئة تتمتع بمقومات الجمال.

4/ الحفاظ على شخصية المدينة التاريخية وتدعيم الشعور بالفخر الوطني ويكون ذلك من خلال إقامة الورش التدريبية لأفراد المجتمع بكل أطيافه وإنشاء المكتبات العامة والمكتبات المتخصصة بكتب ومدونات تراث المنطقة. كذلك تنظيم الورش الفنية والثقافية، وإنشاء متاحف التراث في المباني الطينية في المنطقة، إنتاج مواد سمعية وبصرية متعلقة بتراث وحضارة المنطقة وتاريخها الثقافي والسياسي والاجتماعي. على أن المتاحف يمكن أن تلعب دوراً عظيماً في ترقية الشعوب والتزود بالمعرفة والعلوم والثقافة حيث يعد المتحف المرجع الأساسي لاحتضان اللقاءات الثقافية والفنية.

وتتجلى الوظيفة الجديدة للمبنى الطيني في إقليم الدراسة بأن يتم توظيف المباني مثل الدفي بوصفها متاحف موسمية قائمة على المهرجانات السياحية، والاستفادة من بعض منازل الأسر من ذوي الطبقة ذات الثراء في المجتمع إذ ينعكس ذلك الثراء في تصميم المبنى وتصميم البوابات لتكون نزلا للإيواء وأن تكون بيوتا للتراث وتعرض فيها كل أشكال التراث المادي وغير المادي مستصحباً ذلك الحرف اليدوية التقليدية مثل المصنوعات السعفية والجلدية وصناعات الفخار والجلود، بذلك نكون استفدنا من تلك المباني في تنمية السياحة في المنطقة وفقاً للأسس والتشريعات التي تحكم وتقيد أساليب الحفاظ على المباني التقليدية والتراثية.

خاتمة:

خلصت الورقة إلى أن الخصائص المميزة للعمارة الطينية في منطقة المحس تمثل مورداً يمكن استثماره ليعود بالفائدة على المجتمع المحلي، وأن المنطقة تتميز برصيد هائل من العمارة الطينية والتراث المعماري المتميز بجودته وأصالته، ويحمل قيماً جمالية وتاريخية وثقافية واجتماعية وله رمزية لدى مجتمع المنطقة، كما يتميز بخصائص معمارية متميزة.

وقد اكتسبت منطقة الدراسة أهميتها من دورها التاريخي والحضاري وموقعها الجغرافي، حيث يعد الموقع ذا أهمية في الجذب السياحي وله القدرة على جذب السياح.

كما خلصت الورقة إلى الحالة السيئة التي توجد عليها العمارة الطينية في المنطقة، والحاجة الملحة لترميمها وصيانتها بغرض الحفظ والحماية.

وخلصت الورقة كذلك إلى أن إعادة التوظيف للمعمار الطيني من أهم الأساليب المنسجمة مع الأبعاد اقتصادية والاجتماعية بحيث يتوافق مع القيم التاريخية والتراثية والفنية للبناء المعماري الطيني.

وتوصي الورقة بضرورة الاهتمام بالعمارة الطينية في المنطقة وتطبيق سياسات الحفاظ وإعادة التوظيف للمباني التقليدية مثل المنازل القديمة ذات الخصائص الجمالية والدفيات التي تمثل بيوتا للتراث ومتاحف للتراث الشعبي، وإقامة المهرجانات السياحية الموسمية وعكس ثقافة المنطقة وتراثها المادي وغير المادي لتعود بالفائدة على إنسان المنطقة ومجتمعها.

المصادروالمراجع

المراجع العربية:

- أسعد، خضير، صبا جبار نعمة، أثر المكان على السياحة، *Journal of Engineering*. المجلد 19، 175-194. (2013م).
- إبراهيم، محمد عبد العالي، س.غ.م، **البيئة والعمارة**، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مقدمة ابن خلدون**، دار الكتاب اللبناني، ط2. (د.ت).
- آدم، محمود عبد الحافظ محمد، **الحفاظ على الإرث المعماري الطيني في الواحات المصرية**. (د.ت).
- أيتس، ديفيد جون، **فجر الحضارة**، ترجمة مصطفى لطفي الخوري، بغداد، (1989م).
- بوجباري، عز الدين، **المحافظة على التراث الوطني من وجهة نظر علم الآثار**، الجزائر. (2009م).
- بيومي، علي محمود، **القيمة المعمارية والفن التشكيلي**، دار الراتب الجامعية، بيروت، (2002م).
- الجوادي، مقداد وآخرون، أثر معالجة الترطيب لملاقف الهواء في تحسين البيئة الحرارية الداخلية للمباني، **المجلة العر اقية للهندسة المعمارية**، عدد 1، (2016م).
- جيوفاني، فزاري، **الرطوبة في المباني التاريخية**، ترجمة ناصر عبد الواحد، المكتبة الوطنية، بغداد (1984م).
- الخفاجي، رشا مالك موسى، **أساليب الحفاظ، أسباب ومصادر الضرر والفقدان في التراث المعماري**، كلية الهندسة، جامعة نايل (2011م).
- الدراجي، سعد إبراهيم، جوانب من المعالجات البيئية والمناخية للعمائر الطينية في الواحات الليبية، **مجلة التراث العلمي العربي**، العدد الأول. (2015م)
- الدرديري، مليكة، العمارة البيئية كمحرك للتنمية السياحية المستدامة، مفاهيم وأبعاد، **مجلة التنمية وإدارة الموارد البشرية بحوث ودراسات**، مجلد8 عدد2، الجزائر. (2021م).
- رملي، حمزة، نسرين عروس، العمارة كأحد أهم الابتكارات التسويقية في مجال السياحة المستدامة، **مجلة رؤى اقتصادية** جامعة الشهيد حمة لخضر، الجزائر، (2016م).
- زكريا، أسامة، **المعايير الفنية لإعادة توظيف المباني كمتاحف تبعاً لمفهوم القيمة، تطبيقاً باستخدام الحاسب الآلي**، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة. (ب.ت).
- الزهراني، عبد الناصر بن عبد الرحمن، **إدارة التراث العمراني** إصدار الجمعية السعودية للدراسات الآثارية، الرياض، (2011م).

- الطلبي، جمعة، أهمية التراث العمراني في دعم السياحة الثقافية، **مجلة الآداب العراق**، (2019م).
- عبادي، محمد سعيد، دور إعادة توظيف المباني التراثية في تنمية المجتمع المحلي، **مجلة المعهد العالي للدراسات النوعية**، مجلد 2، عدد 3، (يوليو 2022م).
- عبد الحميد، هدى عادل، وأسامة عبد المنعم التميمي. **التنمية السياحية المستدامة في الأماكن التراثية**، (د.ت).
- عبد القادر، منير، **التعامل مع عناصر العمارة الداخلية في مشاريع إعادة توظيف المباني ذات القيمة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة،(د.ت).
- فرح، منتهى خالد، تأثير العوامل الطبيعية على المباني التراثية، مدينة سامراء القديمة نموذجاً، **مجلة الملوية للدراسات الآثارية والتاريخية**. (د.ت).
- المالكي، مقبولة فارس، **التراث العمراني والمعماري في الوطن العربي (الحفظ، الصيانة، إعادة التأهيل)** الوراق للنشر والتوزيع، عمان، (2004م).
- المحاري، سليمان أحمد. **حفظ المبان التاريخية، مباني مدينة المحرق**، المركز الدولي لصون التراث والممتلكات الثقافية، الأمارات (2017م).
- محمد، عصام متولي، **البناء بالطين تراث معماري يحافظ على البيئة الطبيعية والحضارية (The Mud Construction is an Architectural Heritage that preserves the Natural and Civilized Environment.)**. مؤتمر تنمية الابتكار والإبداع والصناعات التقليدية والتراثية والسياحية الاستراتيجية الوطنية والتنمية المستدامة تحت المحور (الصناعات التراثية في مجال العمارة والحفاظ على التراث المعماري). (مركز المؤتمرات- جامعة القاهرة - مركز الإبداع الفني من 18 الى 19 أبريل 2017. (2019م).
- محمود، بيومي علي محمود، **القيمة المعمارية، والفن التشكيلي**، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، (2002م).
- الموسوي، هاشم عبود، **استخدام الوسائل الرقمية في التوثيق المعماري للمباني التاريخية، نحو إستراتيجية شاملة لتطوير وصيانة المدن التاريخية**، ب.ت.
- نافع، م.د.حنان محمد، أساليب الحفاظ على الطابع المعماري الطيني لمدينة غات الليبية القديمة واستدامته سياحياً، دراسة معمارية آثارية، **مجلة العمارة والفنون والعلوم**، عدد خاص 3، (أكتوبر 2021م).

المراجع الأجنبية:

- Tahir, G. (2015). The Ancient Nubian Mud Built Grain Silo. *Nyama Akuma*, N83

الروايات الشفاهية:

- سمير بوكاب، 65 سنة، قرية سركميتو، موظف في وزارة الثقافة والإعلام الاتحادية